د. محمد دودح
باحث علمي في هيئة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة

السؤال : إذا خلق آدم من تراب فمما خلقت الحيوانات هل هنالك في الشريعة تفصيل في خلقها أم لا؟

الجواب :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد؛ جوابا على السؤال (إذا خلق آدم من تراب فمما خلقت الحيوانات هل هنالك في الشريعة تفصيل في خلقها أم لا؟)؛ أقول مستعينا بالعلي القدير سائله -سبحانه وتعالى- العون والتوفيق:

تُعد الكائنات حية وفق التعريف العلمي إذا كان لديها القدرة على القيام ببعض الأنشطة مثل النمو والتكاثر والحركة، ولكن عند الحد الفاصل قد يصعب التمييز بين ما هو من الكائنات الحية وما هو من الجمادات، فمثلاً يمكن تعريف الفراشة والحصان والشجرة بوصفها كائنات حية، وكذلك يسهل تعريف موجودات كالمنزل والحجر والجبل بوصفها جمادات، ولكن الفيروس على سبيل المثال خارج الخلية الحية يُعدُّ كائنا بلا حياة لانعدام تكاثره ولكنه داخلها ينشط ويتكاثر وينسب للأحياء، وهكذا رغم المعرفة الواسعة بالأحياء يجد الدارسون صعوبة في تعريف الحياة ويختلط النسب بين الكائن الحي والجماد، ولكن الجامع أنهما من نفس العناصر أو التراب ورغم تباين الهياكل تعود جميع الأحياء بعد الموت لأصلها وهو التراب.

والسؤال الذي حار فيه علم الأحياء Biology بلا إجابة شافية من كل وجه هو: "كيف بدأت الحياة على الأرض؟"، ولازالت الأبحاث مستمرة على مختلف الكائنات الحية، وقد تساعد هذه البحوث جموع المختصين في تكوين نظريات علمية يكون بالإمكان إثباتها عن طريق التجارب العلمية، وسؤال بدء الحياة الذي يبدو بسيطا يتضمن في الحقيقة جملة تساؤلات؛ منها على سبيل المثال: "كيف تطورت الحياة حتى ظهر الإنسان؟" و"هل تسبقه أشباه كحلقات وسيطة بينه وبين الحيوان؟"، و"إذا كان قد خلق أطوارا في حلقات بدأت بالنبات فهل هيأت مادة الكون لتنتج حياة؟" و"هل يعج الكون بنظراء للإنسان؟"، لكن تلك التساؤلات قد جردتها من النزاهة محاولات ذات أغراض إلحادية اعتمدت التزييف بلغت حد تقديم فرضيات كحقائق واصطناع حلقات وسيطة وهمية كأدلة علمية والتشويش بالتفسير بالمصادفة العمياء على حقيقة "التقدير في الخلق".

والإسلام لا يقف في وجه البحث العلمي النزيه بل يدعو إليه ويجعله سبيلا للإيمان وطريقا للاستدلال على صدق حديث القرآن؛ يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىَ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ١٨٥، وهو يدعو للنظر في كل ما يمكن النظر إليه في الكون المتسع الأرجاء ويقرن بين النتيجة والاستدلال على قدرة الخالق وصدق حديث القرآن، ويفيض القرآن بالفعل بما يوافق الواقع ويُعين الباحثين، وهكذا جعل القرآن جواب السؤال "كيف؟" ثمرة للبحث العلمي والنظر في الخلق فتركه للزمان ملتفتا إلى جوهر القضية وهو الإيمان بجعل محور الاهتمام السؤال "من؟"؛ "من أبدع على كل مستوى نظم باقتدار وتدبير مُلِم بالدقائق وحكمة وإتقان؟".

ومن التساؤلات الأكثر إلحاحا على ذهن الباحثين: "كيف بدأ الخلق؟"، ومع ندرة الوثائق والأدلة العلمية القاطعة فإن جوهر قصة الخلق أكثر بساطة حتى أن رعاة الشاة والإبل في بيداء تكاد تخلو من أثر الحضارة قد أمكنهم استيعابه بيقين؛ "لا يبني بيت توفرت مفروشاته وتهيأت وسائل راحة من سيقطنه بلا صانع صمم المشروع وأحكم البناء ونظمه باقتدار"، هذا هو مضمون عبارات شتى سطرت في القرآن الكريم؛ منها قوله وتعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُواْ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾ الطور ٣٥و٣٦، وقد تتابعت الآيات تنبه على أن بدء الخلق دليل الإعادة؛ منها قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللّهُ يُنشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ العنكبوت ٢٠، وذلك هو الدليل على الإيمان الذي توصل إليه أعرابي بعبارة استمدت عناصرها من بيئة التنزيل الأكثر بساطة: "البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير أفأرض ذات فجاج وسماء ذات أبراج ألا تدل على اللطيف الخبير!"، وبلغة العصر: جهاز حاسب آلي معقد التركيب مترابط الأجزاء محكم البناء كل جزء ذو وظيفة وغرض يستحيل وجوده بلا موجد، ولابد للقلم من صانع فكيف يغفل ملحد بأن لهذا الكون البالغ الاتساع المليء بالعجائب المترابط الموحد النظم صانع واحد!.

ويعتذر الملحد بأنه لا يقر بأن الموجودات صنائع ومخلوقات لكنها جميعا تعارضه بشهادتها على قدرة الخالق وتفرده، ويظل السؤال الصارم يلاحقه ويزيف إدعاؤه: "فكيف إذن وجد الكون وقد قطع العلم بأنه حادث ذو ابتداء وعمره محدود؟"، ولكن المحققون ينأون عن الجدل ويعترفون بالحقيقة بنزاهة وجسارة، يقول البروفيسور البريطاني ستيفن هاوكنج أحد الأعلام المشهورين في علم الفيزياء: "إن كونا له ابتداء يستحيل مطلقا أن يكون بلا خالق"، فوحدة بداية الخلق تقطع بوجود الخالق وبالطبع وحدته فضلا عن التصميم المتقن والنظام الثابت الذي أقر هاوكنج أنه "عماد تاريخ العلم التجريبي أجمعه"[1]، والنتيجة الحتمية التي توصل إليها العالم الأمريكي جورج كرنشتاين أعلنها بقوله: (كلما دقَّقنا في الأدلة التي يقدمها الكون المفتوح الصفحات أمامنا واجهتنا على الدوام الحقيقة نفسها وهي أن هناك قدرة إلهية خلف بدء الخلق وكافة الأحداث).



نبات لا يملك عقلا واعيا ليفكر بذكاء ويحتال بدهاء فاض بالحكمة وجذب حشرة بألوانه الزاهية وشغلها برحيقه الطيب المذاق حتى تسنى له أن يوصد عليها الأبواب تعززها جملة أشواك ليذيبها ويمتصها غذاء؛ فهل تصنع هذا مصادفة أمدت النبات بمعدات للاحتيال واجتذاب الفريسة وإلهائها وآلات أخرى للافتراس بدهاء؛ أم هي قدرة مبدع الكائنات وحكمته!، وهكذا كافة الموجودات تتأملها آيات على الإبداع والحكمة.

ورغم توجيه القرآن الكريم جل الاهتمام ابتداء لقضية الإيمان جاءت تشريعاته وأوصافه للكون الفيزيائي في شتى المجالات العلمية مطابقة للواقع موافقة لسنن الخلق والفطرة السوية في عفوية تلهم الباحثين ولا تلفت عن غرض؛ وخلاصة ما توصلت إليه التصورات العلمية بعد جمع الأحافير وتقدير أعمارها ورسم خريطة للأحداث أن عناصر الأرض أو التراب لا يكفي وحده لنشأة الحياة ولا بد من توفر الماء، وفيه نشأت بوادر الأحياء في المحيطات الأولى ومنها امتدت لليابسة أشكالا متتابعة بدأت بالزواحف ومنها الثعبان الذي لا يملك سوى الزحف على البطن لانعدام الأقدام، تلاها ظهور الطيور وتشترك جميعها في استبقاء قدمين للسير على الأرض دون الجناحين، وبعدها نشأت الثدييات ذوات الأربعة أقدام، واندثرت نماذج وبقيت إلى اليوم نماذج حية لتشهد بوحدة التقدير وتنفي المصادفة العشواء وتجأر بالقدرة المبدعة في تنوع الكائنات، لكن كل ما عرفوه كأنه ليس إلا تفسيرا لبعض المكنون في قوله تعالى: "وَاللّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىَ بَطْنِهِ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىَ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىَ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" النور ٤٥.

ويدرك الحس أن القدرة الخلاقة التي أبدعت تلك التنوعات من الكائنات في الأرض في مراحل مقدرة لا يمنع مشيئتها النافذة شيء أن تشمل ساحة إبداعها أرجاء الكون، ولعلنا لسنا سوى مرحلة غير أخيرة دون ما في الكون من إبداعات، وتصعب نشأة حياة على كوكب غير الأرض أقرب أو أبعد للشمس لكن احتمال تكرر موقعها وظروفها كبير، والبناء الهائل لا يتصور صنعه ليسكنه الخواء لأن كل شيء موجه لغرض حكيم، هكذا تَنَادى الباحثون بضرورة وجود حضارات عاقلة خارج كوكب الأرض Extraterrestrial intelligence (SETI) تحجبها المسافات الهائلة وحدية سرعة الانتقال، ومنذ أن وضع الإنسان قدمه على سطح القمر في ٢٠ يوليو عام ١٩٦٩ وأنجز الكثير من الانتصارات في كشف المجهول والتسابق قائم على قدم وساق بين فروع علم الفلك **Astronomy** في ثورة محمومة للعثور على دليل مادي ملموس.

ويشي القرآن عند التأمل بشيوع مظاهر الحياة النباتية والحيوانية والفكر والعبادة في الكون الرحيب، يقول تعالى: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُواْ للّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ النمل ٢٥، قال النسفي: " الخبء.. المخبوء"[2]، وقال البيضاوي: "وهو يعم.. النبات"[3]، خاصة لكثرة ورود فعل الإخراج في القرآن مقترنا بالنبات دالا على معنى الإنبات، وقال الطبري: "يعني بذلك يظهره"[4]، ويثور السؤال: فمن حرث وبذر في السماوات وقام بالسقاية حتى خرج النبات يحمل الثمر كما يحدث في الأرض؟، وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىَ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ الشورى ٢٩؛ لفظ (فيهما) لا يحتمل التأويل ويعني وجود أجناس من الدواب في السماوات كما في الأرض، ولا يمكن صرف لفظ (دابة) الدال على وجود أحياء تتحرك في السماوات عن ظاهره سواء منها العاقل أو غير العاقل تدب على أسطح كواكبها كما في الأرض، ولا يمكن حمله على (الملائكة) للتمييز بين اللفظين في قوله تعالى: ﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ النحل ٤٩، والتعبير: ﴿وَهُوَ عَلَىَ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ لا يمكن قصر دلالته على لقاء تلك الأجناس ببعضها البعض في غير عوالم الدنيا لأن الآخرة مشيئة حتمية الوقوع لا يدخلها احتمال مشروط، ويفيض القرآن بما يؤكد النبأ من وجود حضارات عاقلة لا يحصيها العد خارج الأرض سبقتنا في معرفة الله وعبادته كما في قوله تعالى: ﴿وَللّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ الرعد ١٥، وقوله: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ الأنبياء ١٩، وقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَـنِ عَبْداً. لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾ مريم ٩٣و٩٤، وهكذا يرد تعبير

القرآن جامعاً يطابق الحقيقة الخفية بتلطف لا يلفت عن الأغراض الموجهة لعموم المخاطبين، ولا تجد اليوم كتابا ينسب للوحي يجول في كل ميادين العلم فلا يخالف الحقيقة بل يسبق حدس العلماء ويسجل الحقيقة.

---

[1] كتاب تاريخ موجز للكون - هاوكنج - ص١٢٢و١٤٠.
[2] تفسير النسفي ج٣ص٢١٠.
[3] تفسير البيضاوي ج٤ص٢٦٥.
[4] تفسير الطبري ح١ص٣٥٩.